إشكـــالية أصـــل البـــربر

أ.ة.شنعة خديجة
جامعة أحمد بن بلة-1 وهران

مقدمة

تعد موضوعات البحث التاريخي حول أصول المجتمعات من أهم وأصعب مواضيع البحث التاريخي ومنها دراسة المجتمع بالنسبة لسكان الشمال إفريقيا وهم البربر أو الأمازيغ، وذاك بسبب تنوع الحضارات وتداولها على منطقة شمال إفريقيا من فينيقيون، ورومانيون، وو ندال وبيزنطيون والفتح الإسلامي العربي في المرحلة الأخيرة.

ولا تشكل دراسة التاريخ معالجة تفاصيل الماضي فقط وإنما تقدم لنا مفاتيح للمشاكل المطروحة في حياتنا الحاضرة، وتؤدي دراسة أصول المجتمع إلى معرفة الجذور التي تنبثق منها أصل المجتمعات وبالتالي بناء أمة قوية ذات جذور راسخة، إذ أن التاريخ هو تعبير عن كبرياء الشعوب. وهنا أستعين بمقولة لدكتور "هشام الصفدي" في مقاله نحو وعي أفضل لتاريخ الجزائر " الشعوب كالأشجار الحية تزداد مقاومتها للأعاصير كلما رسخت جذورها في أعماق الأرض "؛ فالدراسات التي تم مطالعتها من أجل انجاز هذه الدراسة سواء مرجعيات المستشرقين منها والمشارقة لم تكن تلتزم بالدقة وبالموضوعية سواء عن قصد أو غير قصد .

بالنسبة للمستشرقين لتمرير مشروعهم الإستيطاني والإستعماري وبالنسبة للمشارقة هناك عدم المعرفة الكفاية لديهم بخصوصية المجتمع المغاربي-

وفي هذا الاطار تأتي مساهمتنا لإثراء الموضوع خدمة للبحث العلمي وخدمة لأهدافنا في الازدهار والتطور والرقي .

وعليه فإن إشكالية موضوعنا سوف تنحصر في البحث عن جذور وأصل البربر، حيث أننا سنستعين من" التاريخ" شقه الجنيالوجي مفهوم النشأة والتكوين.

- أولا: مفهوم كلمة "بربر"

يعتبر " البربر"[1] من أقدم السكان الذين استوطنوا بلاد المغرب حيث، ترتكز مجتمعاتهم جغرافيا ما بين برقة(ليبيا) والمحيط الأطلسي شرقا وغربا وما بين السودان والبحر الأبيض المتوسط شمالا وجنوبا، أما من الناحية اللغوية فيمكن رد أصل تسمية كلمة " البربر" إلى عدة روايات تداولها أغلب المؤرخين وقسمت في مجملها إلي خمسة روايات تعطي لكل واحدة منها مفهوما خاصا للكلمة.

- الرواية الأولى، أصل الكلمة روماني

ترجح فئة من المؤرخين [2] الذين أرخوا لأصل كلمة بربر إلى الحضارة الرومانية بعدما استمدوا معناها من اليونان حيث يقال أن مصدرها هي الكلمة اليونانية فارفاروس"Varvaros" وهي تعني اللغط والكلام غير مفهوم، ويعنون بها كل الذين لا يتكلمون لغتهم. ومع انتقال موازين القوى العالمية إلى الحضارة الرومانية استعاروا الكلمة من اليونان وأطلقوا بدورهم علي كل الشعوب والقبائل الخارجة عن نفوذهم بمصطلح البرابرة "Barbar " أي كل الشعوب التي لا تتكلم اللاتينية[3]

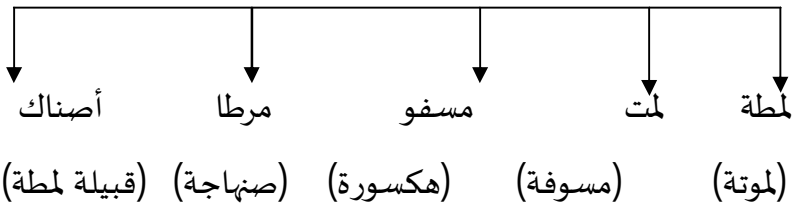
اعتقادا منهم بتفوق الحضارة الرومانية عن كل حضارات العالم، وهي نظرة تمييزية عنصرية.

- الرواية الثانية، أصل الكلمة عربي

ذكر عدة مؤرخين عرب أن مدلول كلمة "بربر" ترجع إلى الجد الأكبر لهذا الشعب. وبالتالي، أرجعوه إلى "بر بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار"[4]، وقد نسجت الرواية أن "بر" تزوج إبنة عمه "بهاء" وفر بسبب عداوة إخوته له خاصة أخيه "عمرو بن قيس" وإنتقل إلى شمال إفريقيا هو وزوجته. ومنه، تناقل الناس كلمة بربر أي خرج بر إلى البراري.

- الرواية الثالثة: رواية النزوح

يزعم رواتها أن الملك "النعمان بن حمير بن سبأ" ذكر لأبنائه أنه يريد منهم تعمير بلاد المغرب فهاجر هؤلاء إليها وانحدرت من سلالتهم قبائل البربر المتعددة[5].



- الرواية الرابعة، رواية الهجرة

تذكر هذه الرواية أن ملك من التبابعة[6] يسمى "إفريقش بن صيفي" قام بغزو بلاد المغرب فسميت إفريقية، وهنا يذكر أنه أول من إستعمل كلمة "بربر" عندما حل بالبلاد لم يفهم لغة السكان الاصليين فصرح قائلا "ما أكثر بربرتكم". وإبن منظور[7] يقدم تعريفا للكلمة في

قاموس لسان العرب هو "كثرة الكلام والجلبة باللسان، وقيل: الصياح. والرجل بربار إذا كان كذلك، ...البربري الكثير الكلام بلا منفعة. وقد بربرة في كلامه بربرة إذا أكثر. والبربرة الصوت والكلام من الغضب، وقد بربرة مثل الثرثرة فهو ثرثار وفي حديث علي كرم الله وجهه لما طلب إليه أهل الطائف أن يكتب لهم الأمانة على تحليل الزنا والخمر فامتنع: قاموا وتذمرواوبربرو، ومنه البربرة التخليط في الكلام مع الغضب والنفور، وبربرة. والبربر:جيل من الناس يقال أنهم من ولد بر بن قيس بن علان، قال ولا أدري كيف هذا، والبرابرة جماعة منهم، زادوا الهاء فيه إما للعجمة وإما للنسب وهو الصحيح، قال الجوهري وإن شئت حدفتها...وقيل البربرة:صوت المعزى" ويستعمل مصطلح بربرة الأسد بمعنى صوت غير مفهوم مع الغضب.

وتذكر هذه الرواية أن "أبرهة ذات المنار" ملك اليمن هو الذي أمر أولاده بأن يعمروا بلاد المغرب وليس "إفريقش" وإن اختلفت الاسماء إلا أن هؤلاء المؤرخون العرب يتفقون حول رواية الهجرة .

- الرواية الخامسة، رواية النفي والتهجير

تركز هذه الرواية على النفي والتهجير وأن البربر من ولد حام وأنهم جيل قديم قد سكنوا المغرب قديما ثم لحقت بهم أجناس بن كنعان من الشام عندما نفاهم "يوشع بن نون" عليه السلام أولا، ثم داوود عليه السلام عندما قتل ملكهم جالوت. ومنه فيرجع النسابة العرب أن البربر هم خليط من الكنعانيين والعمالقة نزحوا جميعا إلى بلاد المغرب بعد مقتل جالوت[8]، فاتفقوا أن البربر يرجع نسبهم إلى اليمن أو شبه الجزيرة العربية خصوصا لدى " البكري" و" المسعودي" (نظرية جلاء البربر من فلسطين)، أما ابن خلدون فقد كرر أن البربر هم من نسل كنعان بن حام بن نوح وتحديدا من اليمن أي من حضرموت[9] وبتالي

، لمند أصل القبائل البربرية الكبرى الى اليمن مثل " صنهاجة"و "كتامة "اللذان لعبتا دورا هاما في تاريخ المغرب الإسلامي؛ فصنهاجة هي المؤسسة لدولة المرابطين أما كتامة فهي من مؤسسة دولة الفاطميين.

يستخلص من كل ماورد أن تسمية البربر هي تسمية مستوردة وليست نابعة من واقع سكان الأصليين (البربر). ولزم الأمر أن نطبق النقد التاريخي في الموضوع لأن التسميات العامة للشعوب عبر مراحل التاريخ يضعها المستعمر والمسيطر فمثلا اسم " الفينيقيين" ليس من وضع أصحابه، ولكنه من وضع الإغريق ولو سئل أحد الفينيقيين عن أسمهم الحقيقي لكانت إجابته "الصيداويون"[10] نسبة إلى مدينة صيدا.

- ثانيا، أصل البربر

لقد وجد أن البربر لا يتألفون من عنصر واحد، بل هم مزيج بشري[11] تكون عبر قرون عديدة، ومنه نجد أن معظم الباحثين يقسمون أصول البربر إلى الفرضيات[12] التالية:

أ- الأصل الأوروبي[13]

يري بعض المؤرخين الغربيين أن أصل البربر هندي أوروبي أي من أصل يافثي، المنسوب إلى يافث بن نوح عليه السلام. واستندوا بذلك إلى الخصائص البشرية كالبياض القوقازي وكثافة الشعر، خرجوا هؤلاء عبر عصور القديمة من الهند ومروا بفارس ثم بالقوقاز واجتازوا شمال أوروبا ليستقروا أخيرا في شمال إفريقيا.

ب- الأصل السامي[14]

أي من أبناء سام بن نوح لا يافت بن نوح. فحسب الدراسات الجيولوجية فإن الجزيرة العربية موطن السامين الأوائل كانت مغطاة

بثلوج في العصور القديمة - وكانت اليمن مهد أبناء سام الأولين مختلطين مع أولاد أعمامهم أبناء حام- فلما انحسرت الثلوج اشتدت الحرارة وتفرقت الجماعات البشرية فإنتقل على أثره الفرع السامي من البربر إلى شمال إفريقيا.

ج- الأصل الحامي

يذكر أنهم من أبناء حام بن نوح كما يذكر أن بني حام[15] تنازعوا مع بني سام مما نتج عنه هجرة بني حام الى بلاد المغاربة ومنه، حصل اتفاق بين هؤلاء النسابة أنهم من ولد قبط[16]بن حام وأنه لما نزل مصر خرج أبناءه إلى بلاد المغاربة أي عند حدود مصر وذلك فيما وراء برقة في اتجاه المحيط[17].

د- الأصل المزدوج[18]

يذهب أصحاب هذه النظرية أن البربر ينتسبون إلى سلالتين، سلالة الأصل الاوروبي (هي الهندية الأوروبية) التي نزحت إلى إفريقيا من آسيا ثم أوروبا وسلالة ثانية سامية. ومنه، إلتقت السلالتان مكونة بذلك عنصر "البربر" ويستدلون في ذلك بوجود إختلاف بالخصائص البشرية[19] عند البربر من لون البشرة، الشعر، العيون، وكذا شكل الجمجمة.

وهكذا نجد من الصعب[20] تحديد المنطقة التي قدم منها القبائل البربرية، فالنسابة العرب يركزون على القرابة بينهم وبين البربر من شبه الجزيرة العربية، أما المستشرقين أو المؤلفين الأوروبيين فيركزون على الأصل الأوروبي لهم ليتمكنوا من تمرير مشروعهم الإستعماري والإستيطاني، أما الفرضية التي لم يركز عليها النسابة والمؤرخون كثيرا هي ماذا لو أن الأمازيغ لم ياتو من أي بلد[21]ودليل الحفريات التي عثرت

على أقدم إنسان عاقل[22] في العالم وجد بمنطقة شمال إفريقيا[23] وهو انسان تغنيف تحديدا بمنطقة معسكر، ومنه يمكن أن تكون نظرية الأصل المحلي ذات أهمية وهذا نسبة إلى دراسات الحديثة للأنثروبولوجيين والجيولوجيين.

ولنسلم أن إحدى الروايات السابقة لها جانب من الصحة والمتعلقة برواية إفريقش الذي نزل بمنطقة البربر، حيث ذكر أنه سمع حديث البربر وسماهم بهذا الإسم ومعنى ذلك أن السكان كانوا موجودون قبله[24]. وبالتالي نستخلص أن البربر قوم وجدوا قبل الهجرات التي ذكرها النسابة العرب. ودليل كثرة قبائل البربر وقوة إنتشارهم في بلاد المغرب لا توحي بأنهم هاجروا إليها من أي بلد، لكن في نفس الوقت لا يخفى أن البربر بإختلاف قبائلهم وبطونهم يختلفون من ناحية المورفولوجية (الخصائص الجسدية) فمثلا هناك فرق بين بربر الأوراس وبربر التوارق[25]، ومنه نظريات الهجرة[26] والإمتزاج لا يجب أيضا إلغاءها. وبالتالي، فمصطلح البربر ليس مفهوما إثنيا[27] بقدر ما هو مفهوم لغوي كما رأينا سابقا من خلال تعدد الروايات، إذ ان المصطلح الاثني الذي يحددهم هو أمازيغ لانهم هم أنفسهم فضلوه ؛حيث تذكر المصادر أن وفد من البربر إنتسبوا إلى مازيغ عندما سألهم الخليفة عمر بن خطاب عن نسبهم ولم يذكر الوفد أنهم بربر وإنما ذكروا أن جدهم الأكبر مازيغ[28] وأن ليس لهم مدائن....ويتفق أغلب علماء الأنساب أن البربر يجمعهم فرعان وهما برنس[29] ومادغيس[30](الابتر) هؤلاء أولاد مازيغ الذي هو من ولد كنعان بن حام بن نوح.

الخاتمة

نستخلص مما طرح أن الإشكال ما زال مطروحا الى يومنا هذا بالنسبة لأصل البربر حيث كثرت فيه النظريات والفرضيات القائمة على النزوح والهجرة والنفي والتهجير .كل هذا بهدف نفي عامل الأصالة عنهم وفوق أرضهم للوصول الي نتيجة تخدم مصالحهم حسب إديولوجياتهم، أي تمرير فكرة استيطانية وهي حق الجميع في التواجد علي أرض البربر وهي فكرة خطيرة عاني منها البربر طوال حقبات تاريخية من الإحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي وحتى من جور بعض الولاة الامويين المستبدين .

- <u>الهوامش والحواشي</u>

[1]- لقد تعددت تسميات السكان الأوائل لبلاد المغرب، فأطلق اليونانيون عليهم إسم "لوبي"، أما الفينيقون فأطلقوا إسم "إفري". هذه الأخيرة أصلها أمازيغي تعني الكهف. بوزياني الدراجي « سلسلة العصبية القبلية القبائل الأمازيغية ادوارها مواطنها اعيانها »ج1، دار الكتاب العربي الجزائر 2007، ص. 13.

[2]- بعض المؤرخين يؤكدون الفرق بين البربر والبرابرة ويرجعون كلمة "البربر" إلى الأصل العربي ومنه معظم المؤرخين العرب بما فيهم ابن خلدون استعمل نفس المصطلح أما البرابرة فالكلمة هي اغريقية الاصل

[3]- Bousqet .G. H., Les Bérbéres, Histoire et Institutions, présses universitaires de France paris,1957, p. 89.

[4] - إبن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المسمى العبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، ج. 6، ص. 176 راجع ايضا الناصري، أحمد بن خالد، أبو العباس، الأستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى تحقيق وتعليق جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، دار البيضاء، 1954، ص. 40..

[5]- بوزياني الدراجي، « سلسلة العصبية القبلية القبائل الأمازيغية ادوارها مواطنها اعيانها »ج1، ص. 18.

[6]- يقصد بالتبابعة هم العرب المستعربة من سلالة قحطان بن عامر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح 2030 ق.م. وقد تفرع إلى ثلاث قبائل التبابعة سلالة حمير المناذرة سلالة عمرو والغساسنة سلالة كهلان وقد اشتهر للعرب قبل الاسلام ثلاث دول دولة التبابعة ودولة المناذرة الموجودتان شمالا ودولة الغساسنة الموجودة جنوبا راجع مبارك بن محمد الميلي تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب ص13 ص. 14.

[7]- إبن منظورمحمد بن مكرم، أبو الفضل، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص. 253، 254. راجع ايضا الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، قاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان الطبعة السادسة، 1998

[8]- إبن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج. 6، ص.185.

[9]- عقون محمد العربي، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص.191

[10]- هشام الصفيدي "نحو وعي أفضل لتاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، وزارة التعليم والشؤون الدينية، الجزائر، عدد 8، 1972، ص. 171.

[11]- بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ص. 34،

[12]- عثمان عكاك، « موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الإحتلال الفرنسي»، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، طبعة الأولى، 2003، ص. 23.

13- النظرية العمودية: (النزوح من الشمال إلى الجنوب) أي من أوروبا إلى شمال إفريقيا، محاضرات عمار يزلي، مقياس أنتروبولوجية الأديان، غير مطبوعة، السنة الأولى ماجستير، الدين والمجتمع، كلية الفلسفة، جامعة وهران، 2010-.

[1]4- النظرية الأفقية: (النزوح من شبه الجزيرة العربية)، محاضرات عمار يزلي، مقياس أنتروبولوجية الأديان، غير مطبوعة، السنة الأولى ماجستير، الدين والمجتمع، كلية الفلسفة، جامعة وهران، 2010-2011.

[15]- الناصري، الأستقصا في أخبار المغرب الأقصى، ص. 60.

[16]- الناصري، نفس المصدر السابق، ص. 60.

[17]- لقبه الناصري بالبحر الأخضر أما البحر المتوسط فيسمى بحر الأندلس. الناصري، الأستقصا في أخبار المغرب الأقصى ص. 61.

[18]- نظرية التقاطع: تقاطع النظرية العمودية مع النظرية الأفقية (أي نظرية مزيج) محاضرات عمار يزلي

[19]- الإختلاف نجده في الخصائص البشرية (morphologie) فمثلا نجد هناك إختلاف في الشكل بين بربر (شمال الجزائر) وبربر الطوارق (جنوب الجزائر).

[20]- العربي عقون، «الأمازيغ عبر التاريخ نظرة موجزة في الهوية والأصول»، مؤسسة تواليت 2010ص. 08.

[21]- العربي عقون، المرجع أعلاه، ص. 8.

[22]- الإنسان العاقل هو إنسان ما قبل التاريخ وبعدها جاء العصر الباليوثي الأعلى إين تميز بوجد إنسان العاقل . العاقل وهو صانع الحضارة أي خصائص الإنسان الحالي.

[23]- جوليان شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية تونس الجزائر المغرب الاقصي من الفتح الاسلامي الي سنة 1830 الجزء الاول، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر 1983 ص. .30

[24]- العربي دحو، مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم، دار الشهاب، الجزائر باتنة 1986ص. .21

[25]- يذكر أنهم سموبهذا الإسم المشتق من توارك لتركهم المسيحية إلى الإسلام، راجع عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، الطبعة التانية 1965، بيروت لبنان، ص. 61.

[26]- نستدل في هذا بالحديث النبوي الشريف "الناس سواسية كأسنان المشط كلكم من آدم وآدم من تراب.لا فرق لعربي علي عجمي إلآ بتقوي"

[27]- راجع في هذا الصدد:

M.G. Olivier, Recherches sur l’origine des bérbéres , éditions lodyssée , 2009.

28- مازيغ الجد الأكبر للبربر وتعني الحر ويذكر أيضا النسب الشريف أو الأرستقراطي، والبربر أنفسهم يفضلون هذا الإسم لأن كل الأسماء السابقة أعطت لهم من التدخل الأجنبي الذي حل ببلادهم. راجع بوزياني دراجي، مرجع سابق ذكره، ص. 10.

29- البرنس .أحفاده البرانس مستقرون يعيشون على الزراعة وهم البربر الحضر الذين يسكنون النواحي الشمالية والسفوح المزروعة

30- البثر:هم البربر الرحل سكان البادية يعيشون على الرعي والتنقل، ويرجع المؤرخون تسميتهم إلى جدهم البثر أو إلى قصر لباسهم مبثور. ؤيذكر الدكتور احمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والاندلس، دار النهضة العربية، بيروت لبنان ص19"من الغريب أن نلاحظ ان تقسيم البربر الي مجموعتين بدو والحضر أي بثر وبرانس نجده أيضا عندالعرب عندما قسموا الي قحطانيين وعدنانيين فالاولون ينتمون الي أصل يمني)حضر أهل حضارة(اما العدنانيون اصل بداوة " ومن خلال هذا نستخلص ان البربر والعرب متشابهان في الانماط الإجتماعية وهذا عامل من عوامل إعتناق البربر للاسلام